نظرات فى الأدب العراقى

للأديب غائب طعمة فرمان

هل هناك أدب عراقى ؟

سؤال يسأله كثيرون ولا يظفرون له بجواب مقنع ، ولا برأى صائب صحيح .

أما الشيوخ فيزمون بشفاههم احتقاراً وسخرية ، ويهزون رؤوسهم ضحكا من السائل واستخفافاً بالسؤال ، فيكفرون بالواقع وينكرون على العراق أدبه ، وعلى الشباب يقظته ، وعلى الجيل الجديد رسالته ؛ ثم يلقون عليك المواعظ والأمثال ناعين لك الأدب ساخطين على شياطينه الجديدة .

أما الشبان فيرنمون رؤوسهم افتخاراً ، ويقرون بوجود أدب عراقى يواكب الحضارة ، ويتفق مع روح العصر الحاضر ، ويستجيب لضرورات الحياة الحاضرة ، وينظر إلى الوجود كينبوع يستمد منه الأدب إلهامه ، ويقتطف منه زهرات وحيه

أما الأولون فضالون ، وأما الآخرون فمغرورون .

والأدب لن يزول من الوجود ما دامت هناك حياة ، وما دام هناك شعور بالحياة . فالوجود الحاس بالشعور ، المكال بأكليل الحياة ، التنعم بنعيم الإحساس لم يفقد الأدب ولن يفقده أبد الآبدين .

لأن الأدب — فى أبسط مدلولاته — مجموعات تجارب حية يسجلها الفنان فى ألفاظ ، ويرمز لها برموز ليستدل بها من رصيدها الكامن من الأحاسيس والمشاعر ... وهنا يتحدد وجود الحياة ، ويترتب عليه إنشاء الفن .

وأخطل الرأى أن نتصور انعدام أدب أمة وهى ما زالت تتنعم بالحياة .

لأنك فى ذلك تنكر وجودها ، وتسلبها نعمة الحياة ، أو تجعلها فى رتبة الجماد سواء بسواء .

فلابدّ من وجود أدب إذا وُجدت أمة ، لأنه لابد من وجود شعور إذا وجدتْ حياة . والأشياء المحيطة بنا ، اللازمة لنا ، نتأثر بها ، ونشعر بوجودها أو بإمكان وجودها فى مخيلتنا الواعية ؛ ولهذا كله كان الأدب قديم المولد قدم الحياة ، واكب الإنسانية فى تاريخها ، وصاحبها فى نضالها ، ورسم لها صورة الكفاح مع الطبيعة .

وصديقه رجل لا يشبهه فى شىء من الأشياء إذا كان سلافان مثال الرجل الذى لا ينسجم فكره وعمله فإدوار مثال الرجل الذى يقيس فكره على قدر عمله . وإذا كان سلافان مثال الرجل الساخط على وجوده فإدوار مثال الرجل الراضى من وجوده . وإذا كان سلافان مثال الرجل الذى يزداد انحداراً كل يوم ، فإدوار مثال الرجل الناجح الذى يزداد كل يوم صعوداً . إدوار هو على الجملة صورة حية للمجتمع الحديث . هو الرجل الذى تخضع حياته لنظام لا يحيد أو لا يكاد يحيد . هو الرجل الذى يترجم جميع أفكاره إلى أعمال ، وجميع دوافعه وتوازعه إلى مصالح . هو الرجل الذى تنسجم رغباته مع واقع الحياة ، حتى لتحار أيهما يستجيب للآخر ... أهو يكيف وجوده طبقاً لواقع حياته ، أم هى أحداث الحياة تتساوق مع رغباته ؟ يعرف سلافان من مطلع كانا يترددان عليه وكأنه يحس فيه ضعفاً وعجزاً من المضى فى تيار الحياة الزاخر ، فيود لو يسنده بذراعه القوية ؛ ليزداد التذاذاً بقوته ... ويقبل سلافان — بعد تردد — هذه اليد الممدودة إليه ، ويبذل له الصديق من جاهه وماله ، ويقبل سلافان هذه الهبات أيضاً ، ولكن على حساب كرامته وكبريائه ، حتى إذا ضاق صدره بعد سنين طوال من هذه الصداقة غير المتكافئة ، ثار على ما ألقى فيه من عبودية ، وفارق صاحبه فراقاً غير جميل .

والقصص الثلاث الأخيرة تصور صراع سلافان لتحقيق فرديته . فإنه لم يحدد بعد مطلبه من الحياة ، وإنما كانت نفسه أشبه بصندوق رنان ، كل عمله أنه يضخم الذبذبات التى تصل إليه من الخارج : ولكنه قد بدأ يحس نزوعاً إلى إكمال نفسه ، فصاحبه يقول له قبل أن يفارقه : « ما بك ؟ » فيجيب : « بى كل ما ليس بى ... أشياء لا تستطيع أن تمنحنى إياها يا إدوار ... السلام . السعادة . روح خالدة . الله . »

(البقية فى العدد القادم)

شكرى محمد عياد

وبعض الناس لا يفرق بين وجود الأدب وازدهاره واكتمال به الفنية ؛ فهم إذا قالوا : إن العراق ليس له أدب عنوا بذلك يملك أدباً فنياً مزدهراً .

والحقيقة أن العراق — ككل أمة حية — له أدب ، لكنه لم يكتمل بعد أساليبه الفنية ، وأن الروّاد الأولين عند . القرن العشرين ليُذكرون بالاجلال والاحترام لا لأنهم وا بالأدب العراق إلى منزلته العليا ، ولا لأنهم أصابوا حظاً من التجديد ، بل لأنهم عبّروا عن الجيل الناشئ ، وواكبوا ب العراق في قصة نضاله ، وسجلوا آثاره وعواطفه بالانه . ولم يتأخروا عن قافلة الحرية السائرة .

والعراق قريب عهد بنور الحضارة ، وقريب عهد بنور الحرية ب عهد بمصر النضال والكفاح في سبيل السيادة الوطنية ، ستقلال الذاتي . وما زالت صور الاحتلال العثماني البغيض فه الوّلم ، وأصداء الثورة العراقية ترن في الآذان ، ولا زالت الكفاح لنيل الحقوق كاملة ، والاستمتاع بالحياة حرة ، عتاق من القيود والأصفاد قصة الشعب العراقي المتكررة ة المعادة .

والعراق بلد الثورات والانتفاضات ، ومهد الحرية الفكرية صر الإسلام الذهبي ؛ والعراق عابد الحرية والاستقلال أبداً مجبول على الاستمتاع بها ، والتضحية لأجلها . وتاريخ العراق ة من الثورات الداخلية والخارجية ، وسلسلة من التمرد ثور من الوضع القائم . وقصة الشكاية قصة الشعب العراقي ستبق خالدة سرمدية ، يشتكي من السلطان ، ويشتكي من مة ، ويشتكي من الحياة ، ويشتكي من الناس جميعاً . ولن هذه الشكايات لأنها لازمة من لوازم طبعه أو التأمين بيانه .

فمنذ عهد مغرق في القدم كان العراق بركاناً للثورات ، وناراً رمة الأوار ، لا تخمد نار ثورة إلا لتقوم مقامها ثورة أخرى؛ عهد الإسلامي لم يهدأ في حقبة من الحقب ولم ينل منه قرار أي منال . والخلفاء العباسيون لم يستطيعوا على رغم م ونفوذهم ، وامتداد سلطانهم أن يهيمنوا على الوضع ، لتوا لهيب النار ، فما فتئت الثورات تتوالى ، والتمردات ب ، وتراخي الزمن يزيدها عظمة واتساعاً .

والحال كانت أعظم اضطراباً ، وأشد نكاية ، وأكثر تلهباً عند ما زال نفوذ العباسيين ، واضطرب حبل الأمن ، وتناهبت الأمبراطورية الإسلامية أمارات ، ودولة نشأت في بقع مختلفة ، واشتد النزاع فيها على السيادة السياسية والفكرية ، وطال الصراع ولم ينته إلا باجتياح العثمانيين الأمبراطورية المقطعة الأوصال الكثيرة الاضطراب .

والعهد العثماني مظالم كئيب ، سارت فيه المأساة بخطوات وصمت ، وامتلأت النفوس غيظاً ، والقلوب حقداً على الترك المحتلين ، ومقتاً لهم ، وحباً للتخلص من تعسفهم وظلمهم .. ولم يسكت العراق عما يجول في ضميره ، وعما يضطرم في قلبه من نوازع الحرية ، ودوافع الثورة وما انفك يطالب بالإصلاح ويعلن سخطه على الولاة الظالمين .

وفي العهد الوطني لم يسكت العراقيون ، وظلوا يطالبون بالحقوق ، ويلهجون بالاستقلال التام ، ويتحرقون للعدالة الاجتماعية والديمقراطية الصادقة . والحكومات تتوالى والوزارات تتبع الواحدة الأخرى ، والشعب دائب على إعلان السخط . .

فما سبب كل هذا ؟

ما علة هذا التمرّد الطويل ، والتقلب الدائم ، والسخط المستمر ؟

من الشائع المفهوم أن للبيئة الأثر الأكبر في تكوين مزاج الفرد ، وتلوين نفسه وتمييز طباعه

فلننظر إلى الطبيعة العراقية لنستشف من خلالها طبائع العراقيين ، وأمزجتهم الخاصة ، وطابعهم المميّز لهم .

الجغرافيون يقولون : إن طبيعة العراق متقلبة لا تثبت على حال ، ثائرة لا تستقر على منوال ... فهو بلد قاري متغير الطقس تغيراً سريعاً ملحوظاً : قارس الشتاء ، حادُّ القيظ ، وشمال العراق متوج بجبال عالية تكللها الثلوج ، وجنوبه مكتنفٌ بصحراء واسعة جافة ، حمراء الرمال ، كثيرة الزوابع فكثيراً ما تهب الرياح حاملة معها رمالاً مزعجة حمراء .

في هذا الجو الناضب المتقلب يعيش العراقي . فماذا يكون مزاجه وطبائعه ؟

فلا بد من أن يتقلب كما يتقلب جوه ، ويتلون كما تتلون بيئته ، ويثور ويصخب كما تثور صحراؤه وتصخب .

واصطبغ الأدب العراقي القديم — منذ عصور إزدهاره — بصبغة التمرد على الحياة ، والضجر من الطبيعة ، والتأفف من

الناس . وهذا ما نقرأه فى شعر الشعراء العراقيين الذين يمثلون الطبيعة العراقية ، ويستجيبون لوحى البيئة والمحيط ... وتلك الصرخات الداوية فى الشعر العراقى العباسى ما هى إلا استجابة للبيئة . والشريف الرضى والمتنبى جبلان شامخان يبرزان فى محيط الأدب العربى واسمى الدلالة ، مميزى الأعلام .

ولولا الأثر الذى تركه تمازج العرب بالأمم الأجنبية ، وتهافت الأجانب على العراق ، وتأثير السياسة العباسية لظهر الأثر ، أكثر وضوحاً ، وأبرز سمات .

ووُسِمَ الأدب العراقى بالسخط كما وُسِمَ بالثورة ، وفقد الرجل العراقى إيمانه الثابت الراسخ بما تُسن من نظم ، وبما تقوم من حكومات ... لأن مسرحه التقلب أفقده الإيمان بالبقاء الدائم فى كل ما يرى من الأشياء التى تواضع الناس عليها .

وهذه العوامل مضافاً إليها أثر الإخفاق الدائم فى أغلب ما يحاول من أمور ، فى أعم ما يؤمن به من دساتير وحكومات — خلقت روح الكآبة المرة فى نفسه ، وأشاعت الألم فيه ... والإخفاق الدائم يبلغ الفرد إلى الانطواء على نفسه ، وإلى الكآبة القاتمة ويضفى روحاً تشاؤمياً خفيفاً على آرائه وعواطفه ... فلهذا لم نشهد فى تاريخ العراق الطويل رجلا نستطيع أن نضمه إلى دعاة التفاؤل ، والمؤمنين بسير البشرية إلى الحياة السعيدة ، وبلوغها مراتب الاطمئنان والأمان .

وللأسباب ذاتها لم يخلق فى العراق فيلسوف يحسب له حسابه ، ويشمخ مع الشوامخ من الفلاسفة العالميين .

والأدب الشعبى العراقى يرسم لك النفس العراقية التى صورتها لك تصويراً صادقاً تاماً .

وتلك الخطوط والملامح تعين لك الأدب العراقى وتجسمه تجسيماً واضحاً ... ولا مناص من وجودها فى الأدب العراقى الصادق .

وإذا استطاع العصر الحاضر أن يضع حداً لهذه الملامح والخطوط ويخرج لنا أدباً يميل إلى التحرر من عبودية هذه السمات فالفضل فى ذلك لنور الحضارة القائمة على تقارب الأمزجة ، وترابط الأمم .

فلم يعد كل قطر مهما بلغ من عزلته وانطوائه على نفسه ، وحرصه على البقاء فى حدود ذاتيته مستطيعاً أن يقاوم تيار الحياة الجارف القائم على الأخاء والتعاون

ولكن حذار من أن نفهم من ذلك أن ننسى أنفسنا ونبتر قوميتنا ، ونتجنى على تاريخنا ومن الخطأ أن يظن أن القومية والأخذ بأسباب الحضارة الحاضرة طرفا نقيض ... ومهما يكن من طغيان التيار الأممى فإن ملامح القومية لا تزول ولن تزول أبد الدهر ... ونحن العرب لا نزال نعتز بقوميتنا ، مقدسين لتاريخنا .

والسمات والملامح التى رسمتها لن تزول كلها أبداً .

وهى قد عينت لنا الأدب العراقى وصورته ، وبينت حدوده وقسماته ، وعلى ضوئها يمكن أن ندرس من نحب دراسته من شعراء العصر الجديد لنرى مصداق ما كتبت .

ويجب أن أنبه إلى ملاحظة واحدة قبل بدء الدراسة وهى : أن تلك العوامل السالفة الذكر لم تعط مجالاً لظهور الأدب الذاتى ولم نر إلا بعض الأشباح الهزيلة تظهر شفافة ضعيفة ثم تختفى . .

لأن الحياة الصاخبة القائمة الممتلئة بالنشاط والحيوية لا تدع للأدب أن ينشىء أدباً ذاتياً بعيداً عن واقع الحياة ودوافعها ، بعيداً عن أحاسيس الجمهور وشعوره .

غائب طعمة فرمان

كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول